نوادر المخـــطوطات

المجموعة الثانيـــة

نشر وتحقيق الأستاذ الثبت عبد السلام محمد هارون

للدكتور شوقي ضيف

هــذه هي الحلقة الثانية من تلك السلسلة الطريفة التي يضطلع ببعثها وإحيائها صديقنا العالم الجليل عبد السلام محمد هارون . وليس من شك في أنه وفق إلى أوسع الحدود في التوفيق حين اختار القيام على نشر الرسائل الصغيرة النادرة في عالم المخطوطات العربية بجانب ما يقوم به من نشر بعض الأمهات .

فكل من يتصل بالمخطوطات العربية يعرف أن الرسالة الصغيرة لا تقل أهمية في تاريخ فكرنا العربي عن الكتاب الكبير ، بل ربما كانت الرسالة الصغيرة أشد أهمية ، ففي العادة يحمّلها المؤلف إما فكرة جديدة ، أو نصوصاً جديدة . ونحن في الكتب الكبيرة إنما نبحث عن هذه الرسائل الصغيرة وما يشبهها ، حتى نقف على الحركات الجديدة في حياتنا العقلية السابقة ، وحتى نطلع على بعض خصائص هذه الحياة .

وقد يكون من تكرار القول أن نشير إلى أننا لا نزال في حاجة إلى نشر التراث العربي وإلى التوسع في ذلك ، وإلى طائفة من شبابنا الذين تثقفوا مهنة النشر أو يثقفونها ، لبعث كل ما يمكن من الأعمال والمؤلفات التي كتبها الأسلاف والأجداد ، والتي لا تزال مطوية على رفوف المكاتب تنتظر من يتناولها بالإخراج والإحياء .

وقد قدمت الأستاذ الجليل عبد السلام محمد هارون غير مرة وأشدت بجهوده ، وما يبذله فيما ينشره من عنت وعناء ، فهو من جهة قد أحسن مهنة النشر إلى أقصى حد ممكن ، وهو من جهة أمين على ما ينشره . ولست أقصد بالأمانة هنا المحافظة على النص ، ولكني أقصد المحافظة على كل ما يمكن لبعث النص على خير الوجوه من حيث التذييل عليه والتعليق ، في غير تكثر ولا ادعاء ، وفي الوقت نفسه في تثبت وثقة بما يقول ويكتب .

وإني أشبه الناشرين من الشباب بمجتهدين ، فكل يجتهد حسب ذوقه ، وحسب ما يضع لنفسه من مناهج ، وما أحرانا بأن نقبل من كلٍّ ذوقه ومنهجه ، وما يوفر لعمله من جهود . وحتى إن اختلفنا مع بعض الناشرين ، أو لم يجر

الخالص في الفلسفة يريدون أن يخضعوا مواد بحثهم وموضوعات تأملهم من الأشياء التي لا تتعلق بما هو ظاهر في نطاق النظر التجريبي والتي هي خاصة بالفكر العقلي الذي يملك القدرة على التحليق والتجريد . أو هم يحلمون بنوع من المعارف الوضعية التي تستند إلى كل من المشاهدة والتجربة بغير تأمل فارغ أو خروج على المحسوس أو شطح في المسائل الغيبية . وأنا فأقول إنهم ليسوا مخطئين حينما يعملون هذا ، ولكنهم مخطئون أشد الخطأ حينما يعتقدون أن مجال الترقي في العلم لا يحصل إلا من هـذا الطريق ، أو حينما ينظرون باستخفاف إلى كل محاولة فلسفية داخل النطاق العلمي . ولو أن المسألة مسألة إنكار في باب الخرافة والتخيل ، وفي باب التفسير البعيد عن روح الواقعية الحية ، لما لحق بنا عالم أو فيلسوف في حلبة الإنكار والنفي ؛ ولكننا نشعر في قرارة نفوسنا بأن البحث الفلسفي — الخيالي كما يزعمون — هو الأصل في كل ارتقاء يصيبه العلم وكل كسب تناله المعرفة . وهاك تاريخ العلم فتأمله وابحث عن المنحنيات التي حاد فيها العلم عن طريقه الخاطئ ، فستجد فيلسوفاً ، عند كل واحد من هذه المنحنيات ، يلوّح بأفكاره ، ويمهد بخطراته لإعداد ما يمكن أن يفيد الاتجاه الجديد .

هذا هو ما عرض لنا فيما يختص بموضوع الميتافيزيقا كما أشار إليه الدكتور زكي نجيب في كتابه عن المنطق الوضعي . وسنعود إلى تفصيل رأينا في جملة من نقاط هذا الكتاب . ونرجو أن نوفق في عرضنا وتعرضنا لهذا الكتاب الممتاز .

عبد الفتاح الديدي

ذوقهم مع أذواقنا ولا منهجهم مع منهجنا ، فإنى أرى أن نقبل منهم عملهم فى غير تحفظ .

وفى رأيى أنه ينبغى أن ننتظر حتى تكثر الأمثلة والنماذج ، وخاصة عند بعض من أتقنوا النشر على أصوله من أمثال الأستاذ عبد السلام محمد هارون . وحينئذ يمكن النقد ويمكن التوجيه ، وفى رأيى أيضاً أن النشر الجيد خير من النقد الجيد فى حد ذاته ، لأن الأول يعطى المثال ، بينما الثانى يشير إليه ، وقد يخرج من الإشارة إلى السخط والإزراء .

وما أحرى جماعة الناشرين أن يقوم بينهم التعاون والتآزر ، وأن يتعمق ذلك نفوسهم ، فيشعروا بشىء من الإخاء . وحبذا لو أحدثوا نقابة أو جمعية يكون من شأنها لم شتاتهم من جهة ، وتعارفهم من جهة ثانية ، بحيث يمكن أن يتعاونوا فى عملهم تعاوناً يفيد نشرهم منه .

وإنى أرنو إلى هذا اليوم الذى أرى فيه كل ناشر قريباً من زميله ، بحيث يعرض عليه ما فى النص الذى ينشره من صعاب لعله يجد له منها مخرجاً .

وتصحيح النصوص القديمة هو فى رأيى دائماً مسألة احتمالات ، وقد يوفق الناشر فى تصحيح يصحح به النص ، وقد لا يوفق ، وهذا لا يضيره بحال ، فالمجتهد إن وفق أجران ، وله أيضاً إن أخطأ أجر واحد ، ولكنه أجر على كل حال .

ومع أنى اتصلت فى أوقات متقطعة وعلى أزمان متباعدة بنشر بعض النصوص العربية ، فإنى أعترف بأن ما صنعته فى هذا الجانب لم يكن فى كل مرة إلا صوراً من الاحتمالات ، قد أعود أنا ، إن نظرت من جديد فى النص ، فأصلحها ، ومن أجل ذلك كنت أقدر كل عمل يتصل بنشر المخطوطات القديمة ، وأعرف مدى ما يلقاه الناشر من صعوبات فى عمله ؟ فليس يعلم إلا الله مدى ما يوفر الناشر المنصف من أمثال الأستاذ الجليل عبد السلام هارون لعمله من جهود مضنية .

وإنى لأشعر دائماً كلما قرأت له عملاً جديداً أنه يبذل كل الإمكانيات ليخرج عمله إخراجاً حسناً ، ومع ذلك فأنت لا تشعر منه أثناء ذلك بصلف ولا بدالة يدل بها عليك ، بل هو يقدم عمله للباحثين ، ويطلب إليهم أن ينبهوه إلى ما قد يفوته ، أو يند عنه . وذلك خلق العلماء العاملين .

وهذه المجموعة الثانية من نوادر المخطوطات تحتوى خمسة آثار طريفة ، أولها خطبة واصل بن عطاء التى اشتهرت فى العصرين الأموى والعباسى لا لما حذقه فيها من فصاحة وبلاغة ، بل أيضاً لأنه استطاع أن يتجنب فيها الراء ، وكانت له لثغة فيها ، وكان ذلك يعد عيباً يقع فيه خطيب ذو بيان ومنطق . وقد نشرت هذه الخطبة من قبل ولكنه أعاد نشرها المثوره على أصل جديد قرأه كاتبه محمد بن يوسف اللخمى على الإمام أبى ذر الخشنى ، وأيضاً فإنه عثر على أصل ثان فى كتاب مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى ، فأتاح له ذلك أن يجيد نشره ، وقدم لهذا النشر بمقدمة طريفة عن واصل ولثغته ، وحديث الجاحظ عنه وعن أنواع اللثغة بصفة عامة .

وبجانب هذه الخطبة البديعة نجد (كتاب أبيات الاستشهاد لأحمد بن فارس المتوفى سنة ٣٩٥ ﻫ) وهو كتاب قصد به صاحبه إلى أن يضع بين أيدى الأدباء مجموعة من الأشعار التى يمكن أن يُتمثل بها فى المناسبات المختلفة من عتاب أو اعتذار أو جزع أو حزن أو معونة لإحسان أو إساءة من صديق ونحو ذلك . ويعقب هذه الرسالة رسالة ثانية فى أعجاز أبيات المبرد المتوفى سنة ٢٨٥ ﻫ ، وهى أيضاً شطور أبيات يتمثل بها التمثل فى المناسبات المختلفة .

ونستمر فنجد كتاب العصا لأسامة بن منقذ بطل شيزر وأحد قواد الحروب الصليبية ، فهو فارس ، وهو إلى ذلك شاعر ، ومؤلف . وكتابه العصا يمكن أن يعد ذا صلة واضحة بكتاب العصا للجاحظ فى البيان والتبيين ، غير أن أسامة يضيف أشعاراً جديدة كثيرة مما نظمه الشعراء بعد عصر الجاحظ ، ومما نظمه هو نفسه ، وأيضاً فإنه — على عادته فى مؤلفاته — يقص كثيراً عن مشاهداته وعصره . وهذا يحمل لتلك الرسالة — على قصرها — طرافة خاصة .

ونصل أخيراً إلى رسالة التلميذ لعبد القادر البغدادى المتوفى سنة ١٠٩٣ ﻫ ، وهى رسالة تبحث فى كلمة التلميذ ووجودها فى العربية — وقد أثيرت فى الأيام الأخيرة أبحاث حولها ، وهل هى عربية أو غير عربية .

وتلك هى المجموعة الثانية من نوادر المخطوطات ، ولا شك فى أنها ثروة جديدة تضاف إلى تراثنا المنشور .

شوقى ضيف